الفصل الأول

عصر الدكتور يعقوب صرّوف

١ ـ الحركة السياسية

إن العصر الذى وجد فيه الدكتور يعقوب صرّوف طفلاً ويافعاً وطالباً للعلم ومعلماً، كانت الدولة العثمانية تسود فيه البلاد العربية، وفى جماتها سوريا ولبنان، سيادة ظلم وجور. تجرد سيف الطغيان فوق الرقاب ترهبها قتلا وشنقاً وتشريداً، والناس سكارى وما هم بسكارى، من هيبة سلطانين هما: عبد المجيد وعبدالحميد، وقد ادعى سلفاؤهما الخلافة منذ افتتاح السلطان سليم الأول سوريا ولبنان ومصر السنة الـ ١٥١٦ م، ومنذ ذلك الحين والناس ينظرون إلى سلاطين بنى عثمان المتوسدين على أريكة العرش فى الآستانة ـ القسطنطينية [١] نظرة قدسية لايعتورها ريب ولا يشوبها رياء.

وانتشر ظلم العثمانيين فى طول البلاد وعرضها، فضاقت صدور الناس وتقطعت أنفاسهم ولا سيما فى لبنان، وقد تفتحت عيون أبنائه وتنبهت أفكارهم بفضل مدارس الإرساليات الأجنبية، وضجت البلدان العربية من استبداد الولاة والعمال القائمين على الحكم، فقل الرزق وغلّت الأيدى إلى الأعناق، واتجهت الأنظار نحو الهجرة إلى الأمريكتين الجنوبية والشمالية وإلى مصر الخديوية، وكانت تتمتع باستقلال داخلى تحت إشراف الدولة البريطانية [٢].

---

(١) استولى محمد الثانى الملقب بالفاتح، على القسطنطينية السنة الـ ١٤٥٤ ميلادية، وبقيت الخلافة فى سلاطين بنى عثمان حتى سنة ١٩٢٣ فأزالها بحركته التحريرية مصطفى كمال باشا «أتاتورك» باعث تركية الجديدة.

(٢) قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور ج ١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

أت الدولة العثمانية عيون الغرب تتطلع نهمة إلى ممتلكاتها الشاسعة الأطراف ولا سيّما الجزيرة العربية والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين ، فأفاق الباب العالي « السلطان » من سكرة ظلمه ومذابحه وعمد إلى تجديد أنظمة الولايات توثيقاً لعرى العلاقة بالسلطة المركزية في الآستانة . فقسمت سوريا ولايتين ، ولاية حلب وولاية دمشق . وقسمت الولاية إلى متصرفيات والمتصرفيات إلى قائمقاميات ، وفصلت متصرفية القدس عن ولاية دمشق وجعلتها مستقلة تحت سيطرتها . وفي السنة الـ ١٨٨٨ م ، جعلت بيروت ولاية بعد أن كانت تابعة لولاية دمشق .

وأما لبنان فقد كان متصرفية له استقلاله الداخلي منذ السنة الـ ١٨٦٤[١] تحت إشراف الدول الأوربية والدولة العثمانية .

على أن هذا التنظيم الذي قامت به الدولة العثمانية لم يضمن للبلاد شيئاً من العدل والأمن والمساواة . بل ازدادت ضعفاً وتأخراً وجموداً . وبفترة قليلة شاهدت البلاد خلع سلطانين هما عبد العزيز وعبدالمجيد . وتنصيب السلطان عبد الحميد فأعلن الدستور السنة الـ ١٨٧٦ م ، ثم طواه بعد مدة وجيزة . وفضّ مجلس المبعوثان ورجع إلى تقاليد الحكم الذاتي المطلق . وإلى ذلك أشار أديب إسحق من أدباء القرن التاسع عشر تحت عنوان أماني وطنية قال : « إن الأمة العثمانية ممن أخذ على غرة واغتيل على غفلة . إذ نبذ بعض أوليائها الشرائع والقوانين ظهرياً ، بل اتخذوها لعبة لاعب وآلة عامل وصنعة مقامر . فما يمكن تأويله منها أولوه وما لا يمكن تأويله نبذوه وانتهكوا فيه حرمة الحق ... فعمدنا إلى التقليد شأن المعترف بعجزه وقصوره ، ولكن لم يتخذ فيه الطريق القصد بل اعتسفنا وضللنا السبيل ، ونحن نحسب لجهلنا أنا على صراط مستقيم »[٢] .

رأت البلاد طولاً وعرضاً ظلم عبد الحميد ومذابحه التي شنها على الأرمن

---

(١) لمحة تاريخية في استمرار استقلال لبنان الشريعي وغصان لفليب قعدان الخازن – مطبعة الأخبار بمصر ص ٤٨ .

(٢) الدرر لأديب إسحاق – المطبعة الأدبية بيروت السنة الـ ١٩٠٩ ص ١١١ – ١١٢ .

وسكان الموصل وماردين وقتله الأحرار غرقاً فى البسفور [١] فاقشعرت الأبدان وارتعدت الفرائص ، فطغى تيار المهاجرة واعرورت البلاد العربية من خصبها ولا سيما سوريا ولبنان . فنقصت الأرزاق وانتشرت الفاقة ، وخربت الحاجة أطنابها فوق الأصقاع جملة . فما رأى الأهلون أمامهم سوى الهجرة سبيلا هرباً من حكم بائر وسلطان جائر ، وعمال قساة وجاسوسية بغيضة ملأت الأنحاء حتى بات المرء لا يأمن على نفسه . ولا يعلم أيعيش يومه إلى غده ؟ فلا يدرى متى يكون آخر العمر به بكلمة يلفظها عبد الحميد الغارق فى أسر ولدان وحور على حدّ قول ولىّ الدين يكن :

ضاءت عقود الملك ما بين التراثب والنحور
والشيخ [٢] بات فؤاده فى أسر ولدان وحور
ما زال معتصر الخدو د هوى ومهتصر الخصور
والجند عارية منا كبها مقصّمة الظهور
خمص البطون من الطوى دقت فعادت كالنسور [٣]

ويضيق بنا المقام إن نحن واصلنا البحث عن تصرف السلطان عبد الحميد بالرعية فقد نخرج عن القصد . ومرادنا تبيان المدة التى عاش فيها مترجمنا ، ويكفى أن نقول : إن الحالة كانت على أشد ما تكون سوءاً وجهلا وفقراً ، وهذا ما دعا يعقوب صروف وزميله فارس نمر إلى ترك عملهما فى الكلية (الجمعة الأمريكية اليوم) لأسباب منها ما يتعلق بحرية الفكر فى موضوع علمى كان يومئذ مدار جدال ونقاش عالميين [٤] ونزحا إلى مصر وأصدرا العدد

---

(١) انظر الصحائف السود لولى الدين يكن وثورة العربة لأمين سعيد ويقظة العرب لجورج أنطونيوس و Zaine : Arab - turkish Relation.

(٢) أراد بلفظة شيخ عبد الحميد نفسه .

(٣) ديوان ولى الدين يكن مطبعة المقتطف والمقطم ص ٣٠ .

(٤) راجع قصة المشروع الارتباطى بحسب أطوار وتطوره ... نشر فى المقتطف بقلم أول طبعة المقتطف ... مصر .

السادس من مجلتهما المقتطف من سنته التاسعة فى القاهرة ومنذ السنة الـ ١٨٨٨ انقطع صروف للمقتطف وحده[١] .

٢ ـ النهضة العلمية

نشأت فى لبنان مدارس الإرساليات الأمريكية والفرنسية والطليانية والروسية ومن ثم الإنكليزية والألمانية ، وأصبح مركزاً لدراسة اللغة العربية وغيرها من اللغات الأجنبية ، وانتشرت المطابع والمجلات والجرائد وذلك بشهادة المستشرق الألمانى « بروكلمن» قال : « فى منتصف القرن التاسع عشر سارت بيروت فى مقدمة الحركة الفكرية السورية لا بمجرد قواها الذاتية بل بفضل البعثات الأدبية التى دفعتها إلى الأمام ، وقد كان عمل الرهبنة اليسوعية ومطبعتها الكاملة الجهاز أشد مفعولا من عمل الرسالة الأمريكية نفسها . . . [٢] »

أما نحن فلا بد لنا من الإقرار بفضل الجامعة الأمريكية فى بيروت « الكلية الإنجيلية السورية » قديماً ، فقد كانت شرعة لأهل العلم والأدب ، تبث فى عقول أبناء البلاد بذور الفضيلة والعلم الصحيح مقرونين بروح الحرية والتفكير الأصيل والنزوع إلى التحرر من ربقة الذل والاستعباد ، وبالإضافة إلى هذا كله فقد أحيت تراث التاريخ العربى وآدابه وجعلت له دائرة خاصة فنشرت كثيراً من المخطوطات ، ووضعت المؤلفات العلمية والأدبية باللغة العربية كأجزاء « النقش فى الحجر »[٣] وغيرها ، وانتشر طلابها فى مصر والأمريكتين وأوربا يحملون فى قلوبهم مشعل الحرية والفكر الناضج طلباً للطمأنينة ومواصلة البحث العلمى فى بلاد الحرية الفكرية والسياسية أمثال

---

(١) يعقوب صروف العالم والإنسان للدكتور فؤاد صروف .

(٢) مختصر تاريخ سورية ولبنان بقلم أحد الآباء اليسوعيين .

(٣) تأليف المستشرق الكبير كارنيليوس فانديك .

مترجمنا يعقوب صرّوف ، وفارس نمر ، وجرجي زيدان وسعيد شقير ، ونعوم شقير ، والدكتور شبلي الشميل ، وإلياس صالح كنعان وغيرهم كثير .

على أننا لانغفل جهود الآباء اليسوعيين وكلّيتهم ومطبعتهم ولا سيما الأب لويس شيخو فقد نشر كثيراً من المخطوطات وألف وجمع كثيراً من الكتب العربية وأسس المكتبة الشرقية وهي شرعة كل أديب وعالم ، كما أننا لاننسى ذكر المستشرق الكبير كارنيليوس فانديك واليازجيين والبستانيين والأسير والأحدب والشدياق وغيرهم ، والمطبعة الأميركية التي أسست السنة الـ ١٨٢٢ م في جزيرة « مالطة » ثم انتقلت إلى بيروت في السنة الـ ١٨٣٤ واهتمت باللغة العربية ونشرت الكتاب المقدس وكثيراً من الكتب المدرسية والأدبية والعلمية .

وقامت إلى جانب هذا كله المدارس الوطنية كعين ورقة ومدرسة المعلم بطرس البستاني والثلاثة الأقمار الأرثوذكسية والكلية البطريركية للروم الكاثوليك وكلية الشيخ أحمد عباس الأزهري وغيرها ، وقد أقبل عليها الطلاب يترشفون فيها لبانات العلم والأدب . ومن دواعي هذه النهضة العلمية ، اتصال الشرق بالغرب . فاستنشقت النفوس ريح الحياة الحرة وتنظفت العقول مما علق بالأذهان من رواسب عصر الانحطاط وانصرفت الهمم إلى سبل المدنية والرقي تعمل جاهدة على تحصيل العلوم منصرفة إلى الدرس والمطالعة في الكتب ولا سيما الأجنبية ، تغذية للأرواح بالأفكار الجديدة ، متخذة منها بذوراً تبذرها في العقول الخصبة التي نمت وأعطت أكلها رطباً جنيًّا ، وما زلنا نرتع بفضلها في نهضتنا هذه المباركة .

٣ ـ الحركة الفكرية

رأينا ماكان للمدارس من أثر فعال في النهضة العلمية في أنحاء البلاد العربية وبين الناطقين بالضاد ولا سيما في لبنان وسوريا ومصر ، أضف إلى هذا كله انتشار الجرائد والمجلات والمطابع ، وإقبال القراء على مطالعتها وفي مقدمتها مجلة

المقتطف : ولقد كان علم صاحبها مترجمنا « تنوير الأمة العربية ورفع مستواها الفكرى والاجتماعى »[١]. ولا ريب فى أن المقتطف قد قضى على كثير من الخرافات والأساطير كمناجاة الأرواح وكشف البنت والخوارق[٢] التى عششت فى عقول أبناء الجيل متسربة إليها من الأجيال التى سبقتها . فجاء حروف ينير المشعل، فبدد ظلمة القلوب ورفع الغشاوة عن الأعين المريضة ، فمهد الطريق إلى الحرية الشخصية فى النفوس وأشاع العلم الطبيعى والفلسفة العقلية وغيرهما ، فكان داعية إلى حلّ القيود المتوارثة منذ القدم ، وما أحرانا أن ننظر إلى بعض كلماته منها « مقياس العقول » قال : « ما من أحد يتعذر عليه أن يرى الفرق الشاسع بين رجل حكيم حصيف الرأى حسن النظر فى العواقب وبين بليد أبله لايعى شيئا أو غرّ أحمق يتقلب مع الأهواء كما لا يتعذر على أحد أن يحكم بأن الحجر الكبير أثقل من الصغير إذا كانا من نوع واحد . ولكن النسبة الحقيقية بين الحجرين لا تعلم إلا بالمقياس أو بالميزان وكذلك النسبة بين العقول لاتعلم تماماً إلا إذا وجد لها مقياس . وكل معارف الناس لاتبلغ مبلغ العلم الحقيقى ما لم تقس بمقياس حتى تظهر النسبة بينها ، والمقياس أساس كل العلوم الطبيعية والكيماوية »[٣] أى بهذه الكلمات وأمثالها التى تراها فى تضاعيف مجلدات المقتطف تحررت العقول من ربقة التقليد والأساطير ، وبعث بالأمة العربية نهضة فكرية ما زال أثرها سائراً حتى يوم الناس هذا ، لما نشره من مختلف القضايا العلمية بأسلوب له صبغته العلمية متحاشياً فيه الجفاف ، وكان إلى جانب هذا يثبت فى مقالاته المترجمة ملاحظاته الشخصية واختباراته الخاصة فيزيد فى قيمتها[٤] ؛ وقد حبب علم الرياضيات إلى القراء بفتحه باباً للمباحث الرياضية فتجرد الهواة والمتخصصون إلى حلها سواء فى ذلك الحساب والجبر والهندسة أو غير ذلك .

---

(١) حنا خباز : المقتطف جـ ١ مجلد ٧٣ ص ٤٣٠ .
(٢) راجع المنتخبات .
(٣) المقتطف جـ ١ من المجلد الثالث والسبعين ص ١ .
(٤) راجع المنتخبات .

وهو كل ما كتب فى مجلدات المقتطف كان أبعد ما يكون عن البت فى الأمور والجزم الذى يجزمه بعضهم ، كأن الحقيقة أصبحت فى متناول يدهم أو أنها فى جيوبهم . ومعتقده الذى لم يتخل عنه البتة هو أنه لم يخلق القاعدة العلمية إلا مع شيء من التحفظ وإن كانت نازلة منزلة الحقائق . فقد كان يبقى الباب مفتوحاً على مصراعيه لنظرات جديدة ، وكان كثير التأنى والتروى قليل التسرع . رأى الناس عن التهور ، وإن نحن أجلنا النظر فى مجلدات المقتطف رأينا أنه لم يرد على مجلة « المشرق » بتهور وعصبية بل نراه قد عمد إلى مقالة أنشأها السر « برترام وندل » أستاذ الأنتربولوجيا فى كلية « ميكل » فترجمها للرد على متهميه بتأييده لمذهب النشوء والارتقاء . فأثبت بذلك ما قاله فى باب المراسلة والمناظرة « مناظرك نظيرك » . وعلى الجملة فهو بمقتطفه قد بعث ثورة فكرية ، وحطم قيود الخرافات والأساطير ، فلا عجب إذا عددناه فى مقدمة رجال النهضة الذين تركوا أثراً لا يمحى وفضلا وافراً لا ينسى .

أما مقالة « برترام وندل » فتتناول مذهب النشوء والارتقاء وتؤيد مذهب دارون ، ويضرب على ذلك أمثالا بطريقة علمية واضحة لا يشوبها لفّ أو دوران .

ومذهب النشوء والارتقاء مذهب قامت حوله مجادلات عنيفة وأبحاث عديدة ، ولكل واحد ممن تصدى لهذا البحث نظر ، ووجهة سلكها بطريقته العلمية[٢] .

---

(١) مجلة المشرق أنشأها الأب لويس شيخو اليسوعى فى بيروت سنة ١٨٩٨ .

(٢) انظر كتاب فلسفة النشوء والارتقاء لشبلى الشميل فى جزأيه الأول والثانى مجموع مقالات له. وكتاب جمال الدين الأفغانى فى الرد على دارون .